چان دوڤينيو

تكوين الانفعالات
فى الحياة الاجتماعية

ترجمة وتقديم: د. إلهام غالي

دار شرقيات للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب
La génèse des passions dans la vie spciale
Jean Duvignaud
Presses Universitaires de France, 1990

تكوين الانفعالات
فى الحياة الاجتماعية
چان دوڤينيو
ترجمة وتقديم: د. إلهام غالي

©جميع حقوق النشر لهذه الترجمة
محفوظة لدار شرقيات

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي من هدى شعراوي
رقم بريدي١١١١١ باب اللوق القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣ س ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف وإخراج: محمد فتحي

مقدمة المترجم

چان دوڤينيو صاحب هذا الكتاب الذى نقدم له "الانفعالات فى الحياة الاجتماعية"، هو عالم الاجتماع الفرنسى المعروف الذى ولد فى ١٩٢١ بالروشال بفرنسا. وهو إلى جانب علم الاجتماع الذى يدرسه فى جامعة السوربون بباريس (٧) يدرس المسرح والأنثروبولوچيا والفلسفة. كما أنه صحفى وكاتب رواية. وبعد أن عمل مساعداً خاصاً لعالم الاجتماع الفرنسى المعروف چورچ جورڤيتش فى جامعة السوربون عمل أستاذاً بالجامعة الفرنسية، ثم جامعة تور الفرنسية، ثم فى جامعة باريس (٧). وهو يشغل أيضاً منصب رئيس قصر ثقافات العالم بباريس، وله كثير من المؤلفات الأدبية والاجتماعية (ثلاثون كتاباً). ونشرت له رواية جديدة بعنوان "القرد الوطنى" ثم تأملات فى مذكرات چورچ بيريك تحت عنوان "العلاقة".

ويدور هذا الكتاب الجديد "تكوين الانفعالات فى الحياة الاجتماعية" لمؤلفه العالم الفرنسى چان دوڤينيو حول محور أساسى

هو الغموض السوسيولوچى لمصطلح الانفعال. ويتساءل عما إذا كان ممكناً أن يرتبط بدلالة ثابتة لا تتغير مع تغير السياق الجماعى والفردى ومع تحول التجارب والإطار الاصطلاحى والبعد النظرى؟ هل يتوازى مفهوم الانفعال والانفعال نفسه؟ هل يتطابق الانفعال وقواعد الانفعال اللغوية والمنطقية؟

ينطلق المؤلف من شك كثيرٍ من الباحثين والمفكرين فى إمكانية تعدد مفهوم سوسيولوچى للانفعال نتيجة شيوع الانفعال فى سوق الموضة، وما أثاره من ثرثرة عامة منذ أن عرفت أوروبا عصر التزوير وما صاحبه من سقوط ثقافى ومادى واضح.

إن الانفعال، حسبما يرى چان دوڤينيو، أسلوب معين فى الحياة، فعل من الأفعال الاجتماعية الفريدة ومظهر من مظاهر الوعى بروابط العالم.

وهكذا فالانفعال جانب من إشكالية الفعل. والفعل Acte هو الهيئة العارضة للمؤثر فى غيره بسبب التأثير أولاً؛ كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعاً. وفى اصطلاح النحاة العرب أن الفعل هو ما دل على معنى فى نفسه مقترناً بأحد الأزمنة الثلاثة، وقيل الفعل كون الشىء مؤثراً فى غيره. وأما الانفعال، فقد يترجم مصطلح Affect أو مصطلح Affection وقد يرادف مصطلحاً مغايراً لمصطلح Emotion. لكن ما يقصده چان دوڤينيو من الانفعال هو مصطلح Passion.

ويروى العالم الفرنسى سيرة الانفعال بمعنى Passion خلال

التاريخ الفكرى بشكل عام. إلا أنه لاحظ أثناء بحثه أن الأدباء هم أكثر من استعملوا هذا اللفظ للدلالة على محرك الإبداع فى الرواية والقصيدة، على وجه الخصوص. فالأدب، وليس علم الاجتماع، هو الذى يبدو وكأنه الأرض الخصبة لوصف تقلبات الانفعال.

وقد شاع شيوعاً كبيراً أن الانفعال محرك الروح التى تتشوق إلى الهروب من الإرادة أو من العمل أو من الفعل نفسه. وهكذا استعمل الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع هذا اللفظ للدلالة على جميع مظاهر التذبذب المستمر.

والانفعال عند أرسطو جنس من الأجناس البشرية، يعبر عن حالة من حالات الجوهر أو الإنسان المفعول فيه. ويرادف عنده الرغبة والغضب والخوف وغيرها من الحالات.

ويبدأ الانفعال من الاندفاع العاطفى أو من العاطفة العنيفة. والعوامل الخارجية هى التى تحدد قوة الانفعال ومدى بقائه.

ويستعمل ديكارت الفيلسوف الفرنسى هذا اللفظ للدلالة على ما تقوم به الروح من دفع للأشياء التى يحتاجها الجسد. وأما الفيلسوف الألمانى ليبنتز فيرى أنه يدل لا على عمليات الإرضاء ولا على رأى من الآراء، وإنما يدل على ميل من ميول النفس البشرية يصاحبه مظهر من مظاهر المتعة أو النفور.

وفى مفتتح القرن التاسع عشر بدا أن هناك تيارين متباينين فى تصوير الانفعال.

وأما الاتجاه الأول، فهو الاتجاه الذى يستوحى فكر الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت، ويضع هذا الفكر ضمن الإطار الأشمل

للتقليد الإنجليزى الذى يقول بأن الانفعال عاطفة عنيفة أصلها فسيولوچى.

وأما الاتجاه الثانى، فهو الاتجاه الفكرى الذى يستقى مصادره الفلسفية من ألمانيا، وعلى وجه التحديد من أعمال الفلاسفة الكبار هيجل وكانط وليبنتز فضلاً عن تأثير هذا الاتجاه فى فرنسا فى إطار فكر فوريه. وفكرة هذا الاتجاه العامة حول الانفعال تؤدى إلى التسليم بأن الانفعال اتجاه طارد أو نشاط لحظى للروح الإنسانية، حيث يغيب العقل عن أداء وظيفته.

وعند هيجل يبدو العقل الذى يسود التاريخ منفعلاً وليس فاعلاً فقط.

واختلف عديد من العلماء - وليس الفلاسفة فحسب - حول دلالة مصطلح الانفعال. والجدير بالذكر فى سياق هذا الاختلاف هو الصراع الذى دار بين العالم الفرنسى ريبو وبين الفيلسوف الألمانى العظيم كانط. فقد كان يرى فيلسوف النقد الألمانى أن الانفعال عند الإنسان مرض يستوجب العلاج. وأما العالم الفرنسى الآخر دوجاسى فقد وقف موقفاً مغايراً حيث رسخ فكرة ضدية تؤدى فى نهاية التحليل إلى أن الانفعال فى صورته الحقيقية إحساس عميق المدى لا يحده إلا مقومات الأخلاق والمجتمع.

وإذا كان لفظ Passion هو اللفظ الذى استعمله الكتاب القدامى للتعبير عن الانفعال عموماً، وإن ترجمناه أحياناً بلفظ التأثر أو بكلمة الميل مع الهوى، فإن عالم الاجتماع الفرنسى الكبير چان دوڤينيو اقتصر على استعمالات ثلاثة، يتجاوز فى ظلالها معانى

الانفعال القوى ودلالات الانفعال الذى قد يكون من القوة بحيث يسيطر على ملكة الحكم والإرادة عند الإنسان والاستعمالات الدارجة بمعنى الانفعال أو النزوع الجنسى. كما يتجاوز المعنى المعروف فى الفكر الغربى القائل بأن الانفعال - بوجه عام - ميل عام وكلى وشامل قد يمارس بطريقة ثابتة قليلاً أو كثيراً دور الموجِّه للفعل والفكر.

إن التأثر أو الميل مع الهوى أو الانفعال عند چان دوڤينيو لفظ يطلقه على ثلاثة مستويات من جملة سياقات الانفعال.

١ - إن الانفعال إعادة تنظيم لهيكل الشخصية فى إطار اتجاه أو ميل مسيطر أو طارد. ويستند فى هذه النقطة إلى الكاتب الفرنسى المعروف ستاندال، حيث يقوم بالتمييز بين أمرين، أما الأمر الأول فهو حالات الانفعال، وأما الأمر الثانى فهو الانفعال نفسه. ولهذا التمييز يمكن أن نطلق على الحب والثأر والغضب والكبرياء صفة الحالة الانفعالية وليس الانفعال بوجه عام. والانفعال بوجه عام إنما هو إحساس يقيم عملية تركيز تتعارض مع التوزيع الطبيعى لمشاعر الإنسان. وبالتالى فالانفعال ليس شعوراً قسرياً ولا فكرة ثابتة. الانفعال مولد لأسلوب جديد فى الحياة.

٢ - الانفعال ميل نحو المطلق بمعنى أن أصل الانفعال هو الرغبة أو الميل نحو المطلق. ويتبع الانفعال دراما حميمة تقيم مسرحاً لتجليات الانفعال فى حوار بين الفرد وبين الوجود الرومانى أو بين الفرد وبين الكينونة الأسطورية.

٣ - الانفعال تعارض معاش بين الارتباط أحادى الجانب لموضوع أو شىء ما تم تعميمه إلى مثال مطلق، وبين ما يشعر به

المنفعل أو المتأثر، رغماً عن ذلك، أنه جوهر ذاته. شخصيته فى عمقها مخنوقة لكنها غير ملغاة بفعل الانفعال. وهنا يذكرنا عالم الاجتماع چان دوڤينيو بعبارة آلان الفيلسوف الفرنسى المعروف بكتابته الشائقة والمقتضبة: "الانفعال إنما هو أنا وليس أنا".

كذلك يتعرض چان دوڤينيو عالم الاجتماع لظواهر ثلاث تصنع فى نهاية المطاف الحركة الانفعالية: المجتمع خالق المادة أو اللغة، والسلوك، والصراع النفسى الذى يجعل المنفعل يتعارض فيما بينه وبين نفسه، وبينه وبين المجموع الاجتماعى.

وقد يبدو علم اجتماع الانفعال أكثر طموحاً من العلوم النفسية والاجتماعية والإنسانية الأخرى، التى تنظر إلى الظاهرة من منظار مختلف. وقد يبدو أيضاً أن المقاربة السوسيولوچية لظاهرة الانفعال الجماعى أكثر تناقضاً من المقاربات العلمية الأخرى. إذ كيف يستطيع عالم الاجتماع أن يجيب عن السؤال التالى: كيف ينمى المجتمع الإنسانى الانفعال ويزيله فى الوقت نفسه؟ وتكرار الظاهرة خير دليل على الحاجة السوسيولوچية الأساسية والماسة إلى ضبط هروب الانفعال من مختلف أشكال الصيرورة والتاريخ. وموافقة الإنسان المنفعل على إعادة انفعاله إنما هو بالتحديد جوهر الانفعال أو ماهية التأثر أو دلالة الميل مع الهوى.

والمعروف أن الإنسان المنفعل يرفض المستقبل باسم الماضى. لكن الإنسان المنفعل كائن عاجز عن الاهتمام بأبعاد المستقبل نتيجة الإحساس القوى العارم بالحاضر، وبسبب يقظة الرغبة الآنية المستمرة الحاضرة أبداً.

وقد أجمع العلماء على أن الانفعال من إنتاج الحضارة. فغاية الانفعال إنما هو أن يقنع نفسه أمام أعين الآخرين ويرمز للماضى باعتباره قالباً مقدساً. وبما أن الماضى هو ذات الموضوع الانفعالى أو هو المعاش، فالأنا تقرن نفسها بالحاضر فى صبغة متبادلة أو فى سياق يكاد يكون سحرياً أو أكثر سحراً من الاقتران الدينى؛ من اقتران الدين بالانفعال.

إن الانفعال حالات أو أنواع.. أصناف وأشكال. فهناك الشعور بالأمل والإحساس بالخوف والغضب والعذاب والحب... وإن تشابهت فيما بينها فى بعض الأحيان. وقد أشار المفكرون القدامى إلى أنه لا يجب وضع قائمة نرتب فيها مختلف أشكال الانفعال. إلا أنهم توصلوا إلى أن الانفعال يقتصر فى جوهره على نوعين: العذاب والحب.

وإذا حاولنا - حسبما يرى چان دوڤينيو - أن نصنف الانفعالات، ففى مقدورنا أن نحصر التصنيف الأساسى فى حدود الأنا والعالم الآخر فى ثلاثة محاور أساسية يقوم عليها الانفعال. فهناك شهوة الأكل والبخل، والانفعال الطائفى. وهناك أيضاً الانفعال بالآخر ومع الآخر فى سياق الحب والإنسان الطموح. وأخيراً هناك الانفعال فى العالم أو بالعالم فى سياق اللعب أو الأعمال الثقافية. الانفعال فى العالم أو بالعالم أو عبر العالم إنما هو غزو للعالم وبحث عن معرفته والسيطرة عليه.

إلا أن چان دوڤينيو يلاحظ أنه رغماً عن صحة هذا التقسيم